ولد سنة أربع وتسعين وأربع مئة، وسمع الحديث، وكان شاعراً فاضلاً، توفي في شهر رمضان ببغداد، ومن شعره في المسترشد: [من البسيط]

قُلْ للإمامِ الذي إنعامُهُ نِعَمٌ ... وسَحُّ كَفَّيْه منه تخجلُ الدِّيَمُ
وبحرُهُ الجمُّ عَذْبٌ ماؤُه غدقٌ ... سَهْلُ الشَّرائعِ غَمْرٌ طيِّبٌ شَبِمُ
مسترشدٌ إنْ بدا فالبَدْرُ غُرَّتُهُ ... وإنْ يَقُلْ كَلِماً فالدُّرُّ ينتظمُ

السنة السابعة والسبعون وخمس مئة

فيها فُتِحَ رباط المأمونية [ببغداد، و][1] كان دار سُنْقُر المُسْتنجدي قُبض عليه، وأخذ منه من العين مئة ألف دينار، ومن المتاع والخيل والأثاث ما قيمته أكثر من ذلك، وعُمِلَتْ رباطاً للصُّوفية.

وفيها عاد صلاح الدين من دمشق إلى القاهرة، واستناب بدمشق ابن أخيه عز الدين فرخشاه، وخرج إبرنس الكَرَك يريد تيماء لينتهز الفُرْصة في الحجاز، ومعه الأدلاء من العرب، فخرج فَرُّخْشاه بعساكر الشَّام، فبلغ قريباً من تيماء، وبلغ البرنس، فرجع إلى الكَرَك، وأمر صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طُغْتكين بالمسير إلى اليمن، فأقام يتجهَّز.

وفيها توجَّه صلاح الدين إلى الإسكندرية، فخيم بظاهرها عند عمود السَّواري، وقال: نغتنم حياة الشيخ أبي طاهر بن عوف، فسمع عليه «موطأ مالك» [بروايته عن الطُّرْطُوشي][1]، فتمَّ له ولأولاده السَّماع، وكان واليها مجير الدِّين قراجا.

وفيها بعث السُّلْطان قراقوش إلى اليمن، فقبض على سيف الدولة مبارك بن كامل بن مُنْقذ، وطلب منه المال، وكان نائبَ شمس الدولة توران شاه، فبعث بالمال إلى العادل وتاج الملوك، وخواص صلاح الدين، فكلَّموه فيه، فأمر بإطلاقه، وحَمَلَ إلى صلاح الدين مئة ألف دينار، وكان أخوه حِطَّان بزَبيد، وابن الزَّنْجيلي باليمن، وجَرَت بينه وبين حِطَّان وقائع.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

وكان بالمِزَّة خطيب يقال له: العَلَم، زوَّر على صلاح الدين خطًّا بزيادةِ جامكيته ووقف عليه فَرُّخْشاه، فعلم باطن الحال، فهمَّ بالإيقاعِ به، فهرب إلى القاهرة، واستجار بالسُّلْطان، فأجاره، وقال: ما أخيب قَصْدَك. وكَتَبَ له توقيعاً بما طلب.

وحج بالنَّاس من العراق طاشْتِكِين.

وفيها توفي

الملك الصَّالح إسماعيل[١]

ابن نور الدين محمود بن زَنْكي، صاحبُ حلب، كان مرضه بالقُوْلَنج، بدأ به في تاسع رجب، [وذكر ابن الأثير في «تاريخه» أنه][٢] لما اشتدَّ به وضَعُفَ وَصَفَ له الأطباء قليلَ خَمْرٍ، فقال: لا أفعل حتى أسألَ الفقهاء، فسأل الشَّافعية فأفتوه بالجواز، وسأل العلاء الكاساني فأفتاه أيضاً، فلم يفعل، وقال: إن كان الله قد قرَّب أجلي، أيؤخره شُرْبُ الخمر؟ قال: لا. قال: فوالله لا لقيت الله وقد فَعَلْتُ ما حرَّم عليَّ. فمات، ولم يشربه[٣].

[قلت: أخطأ الكاساني، فإن الخمر لا يباح عند أبي حنيفة وجميع أصحابنا للتداوي، وكذا عند مالك وأحمد، وعند الشافعي يجوز للضرورة، وعندنا أن الله تعالى لم يجعل شفاء الأمة فيما حرَّمه عليها][٢].

ولما اشتدَّ به الألم أحضرَ الأُمراء واستحلفهم لعِزِّ الدين صاحب المَوْصل، فقيل له: لو أَوْصيتَ إلى ابنِ عَمِّك عماد الدين صاحب سِنْجار؛ فإنه صعلوكٌ ليس له غير سنجار، وهو تربيةُ أبيك، وزَوْج أختك، وشجاعٌ كريم، وعز الدين له من الفرات إلى هَمَذَان، فقال له: هذا لم يخفَ عني، ولكن قد علمتم استيلاءَ صلاحِ الدِّين على الشَّام ومِصْر واليمن، وعماد الدين لا يثبتُ له، وعِزُّ الدين له من العساكر والأموال، فهو

(١) سلفت أخباره في هذا الكتاب على السنين، وله ترجمة في «الروضتين»: ٣/ ٧٥ـ٨٠ ، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١١٠ـ١١٢ .

(٢) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٣) انظر «الباهر»: ١٨١ـ١٨٢ .

أقدرُ على حِفْظ حلب، وأثبت من عماد الدين، ومتى ذهبت حلب ذهب الجميع. فاستحسنوا قوله. وتوفي في الخامس والعشرين من رجب، ولم يبلغ عشرين سنة، وكانت أيامه ثماني سنين وشهوراً، وأقام الحلبيون النوح عليه والمآتم، وفرشوا الرَّماد في الأسواق، وأقاموا مُدَّة على ذلك [وجرى عليهم ما لم يجر على أحد][1]؛ لأنه كان صالحاً كما سُمِّي، عادلاً منصفاً، حَسَنَ السِّيرة، سلك أسلوب أبيه.

ذِكْرُ ما جرى بعد وفاته:

كان شاذبخت الخادم والي القلعة، فكَتَبَ إلى عز الدين مسعود يخبره، وكان تقيُّ الدِّين عمر بمَنْبِج، فسار عز الدين عَجِلاً، فقطعَ الفرات، فانهزمَ تقيُّ الدين إلى حماة، فأغلق أهلُها في وجهه الأبواب من جَوْره، وصاحوا: عِزّ الدين أتابك يا منصور، فلاطفهم.

وأما عِزُّ الدين فصَعِدَ قلعة حلب، واستولى على أموالها وذخائرها، وأحسن إلى الأمراء، فقالوا له: سِرْ بنا إلى دمشق وغيرها لنأخذها. وكان صلاح الدين بمصر، فقال: بيننا عهودٌ وأيمان ومواثيق لا يجوز العدولُ عنها. وأقام بحلب مدَّة، وعلم أنه لا طاقةَ له على حِفْظ المَوْصل والجزيرة وحلب، وأنَّ شوكة صلاح الدين قوية، فسار إلى الرَّقَّة، وراسل أخاه عماد الدين في تسليم سنجار وتعويضه عنها بحلب؛ لقُرْب سنجار من المَوْصل، وقيل: إنَّ عماد الدين سأله ذلك، وقال: إن لم تفعل أعطيتُ سنجار لصلاح الدِّين، فأجابه، وسلَّم إليه سنجار، وسار عماد الدين إلى حلب، وكان عز الدين لمَّا حصل في حلب يئسَ صلاحُ الدين منها[2].

وقال ابن شدَّاد: لما أوصى الملك الصالح لعز الدين بحلب سار مجداً بعساكره خوفاً من السُّلْطان، فكان أول قادم إليها من أمرائه مظفر الدين بن زين الدين في شعبان، ووصل عِز الدين في آخر الشهر، وتزوج [عز الدين أم][3] الملك الصَّالح في شوال، وأقام بقلعة حلب إلى سادس عشره، وعلم أنه لا يمكنه حفظ الشام والموصل

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) انظر «الباهر»: ١٨٢ـ١٨٣ ، و«الكامل»: ١١/ ٤٧٣ ، ٤٩٦ـ٤٩٧ .

(٣) في (ح): وتزوج امرأة الملك الصالح، والمثبت ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

[لملازمته الشام][١]، وألحَّ عليه الأُمراء في طلب الزِّيادات، ودلُّوا عليه لأنهم اختاروه، وضاق عَطَنُه، فسار إلى الرَّقَّة، واتَّفق مع أخيه عماد الدين صاحب سنجار، وتقايضا، ودخل عماد الدين إلى حلب في ثالث عشر المحرَّم سنة ثمانٍ وسبعين وخمس مئة[٢].

وكتبَ صلاحُ الدِّين إلى الخليفة يستأذنه في الاستيلاء على حلب ويقول بأن الجماعة الأتابكية يسعَوْن في تفريق الكلمة، ويستنهضون الفرنج لقتال المسلمين، ويستعينون [علينا][٣] بالإسماعيلية، وأقام بمصر ينتظر الجواب.

عبد الرحمن بن محمد بن أبي السَّعادات[٤]

أبو البركات الأنباري النحوي، مصنِّف كتاب «الأسرار في علم العربية»، وكتاب «هداية الذاهب في معرفة المذاهب»، وغيرهما.

كان إماماً في كلِّ فنٍّ مع الزُّهْد والورع والعبادة، والصَّبر على الفَقْر مع القُدْرة، ولا يقبل بِرَّ أحد، وكان يحضر دعوة الخليفة في كلِّ سنة، فيبعث إليه بالخِلَع والذهب فيردُّ الجميع، وكان يَسْرُدُ الصَّوم، ويُفْطر على أيِّ شيء كان، وبابه مفتوح لطلاب العلم، لا يردُّ أحداً، وكان قد تفرَّد بعلم العربية، وشُدَّت إليه الرِّحال، ومازال على فقره وعبادته حتى توفي يوم الخميس ثامن عشر شعبان، ودفن بباب أبرز [عند أبي إسحاق الشيرازي، وخلت بغداد عن مثله][١].

عمر بن حموية[٥]

عماد الدين، والد شيخ الشيوخ صدر الدين وتاج الدين، وهو من ولد حموية بن علي الحاكم على خُراسان، أيام السَّامانية، وتوفي حموية سنة ثمانية عشرة وثلاث مئة.

---

(١) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٢) «النوادر السلطانية»: ٥٥ـ٥٦ .

(٣) ما بين حاصرتين من (م) و(ش).

(٤) له ترجمة في «الكامل» لابن الأثير: ١١/ ٤٧٧ ، و«إنباه الرواة»: ٢/ ١٦٩ـ١٧١ ، «وفيات الأعيان»: ٣/ ١٣٩ـ١٤٠ ، و«سير أعلام النبلاء»: ٢١/ ١١٣ـ١١٥ ، وفيه تتمة مصادر ترجمته.

(٥) هو عمر بن علي بن محمد بن حموية، له ذكر في «الروضتين»: ١/ ٣٦ ، ٢/ ٢٦٤ ، و«العبر» للذهبي: ٤/ ٢٣٢ ، و«النجوم الزاهرة»: ٦/ ٩٠ ، و«شذرات الذهب»: ٤/ ٢٥٩ . =

ولد عمر ببُجَيراباد من جُوين ليلة السبت العشرين من جُمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمس مئة، وقَدِمَ دمشق حاجًّا في زمن مجير الدِّين أَبَق، فأقام بها يسيراً، ثم عاد إلى خراسان، ثم قَدِمها سنة ثلاث وستين في أيَّام نور الدين محمود بن زَنْكي، وأقبل نورُ الدِّين عليه، وأحسن إليه، وسأله المُقام بالشَّام ليصل إلى الصُّوفية بدمشق وبَعْلَبَكّ وحِمْص وحماة وغيرها، ولما توفِّيَ نورُ الدِّين وملك البلادَ صلاحُ الدين أقام عمر على حاله منقطعاً إلى العبادة، لم يكن له بصلاح الدين أُنساً، ولا كان يغشاه، وكان بخانكاه الصُّميصاتي رجلٌ صوفي يعرف بتاج الدِّين مسعود البَنْدَهي، وهو الذي أوقفَ خزانة الكتب بالخانكاه، وكان يغشى صلاح الدين، فسأله يوماً عن عمر، وقال: أيش فيه؟ وما حاله؟ فقصَّر في وصفه، وقال: رجل صوفي في الماء والمحراب، فسكتَ صلاحُ الدِّين، وأقام مدَّة على حاله، واتَّفق وصول صدر الدين عبد الرَّحيم شيخ شيوخ بغداد إلى صلاح الدين رسولاً من الإمام النَّاصر، فنزل بخانكاه خاتون ظاهر دمشق، وبلغه انقطاع عماد الدين عمر، فأرسل إليه يسأله الاجتماع به ويعتذر عن قَصْده، فخرج إليه، فسأله عن حاله، فذكر له طرفاً من حديث البَنْدَهي، فقال: يزول هذا، وبينما هما في ذلك جاء صلاح الدين إلى شيخ الشيوخ، فقال شيخ الشيوخ لعماد الدين: لا تبرح من سَجَّادتي ولا تخرج عنها، وقام شيخ الشيوخ، والتقى صلاح الدين، ودخل وعماد الدِّين قاعدٌ على سجادة صدر الدين، فجلس إلى جانبه، وتأخر شيخ الشيوخ، ووقف في آخر الصُّفَّة، فقام صلاحُ الدين لقيامه، وقال: بسم الله، اجلس، فقال: لو جلس أحد من أجنادك في حضرتك بغير إذنك أما يكون قد أساء الأدب؟ قال: بلى. قال: فأنا من تلامذة هذا الشيخ عماد الدين ومن مريديه، فلا يسعني أَنْ أجلس بحضوره إلا بإذنه، فالتفتَ صلاحُ الدِّين إلى عمر، واعتذر إليه، وقال: نجتمع بخدمتك، ووالله ما عرفتُ مكانك وأصالتك. ولما انصرف صلاح الدين بعث إليه بقُماش وذهب وعِمامة مُذْهبة قيمتها ألف دينار، وترقَّت حاله عنده، وتأخر البَنْدَهي، وبان لصلاح الدين سوء مقصده.

= وكان لأسرة شيخ الشيوخ هذه دور مهم في الدولة الأيوبية. انظر دراسة عنها باسم «العلماء بين الحرب والسياسة في العصر الأيوبي» (أسرة شيخ الشيوخ) للدكتور حامد زيان، طبعت بالقاهرة، ونشرت عن دار الثقافة ١٩٧٨ .

ذِكْرُ وفاته:

كان ولده صدر الدين قد قدم من هَمَذَان إلى دمشق، فأقام عنده يسيراً، ثم بعثه إلى العجم ليوفي ديناً عليه، فخرج من دمشق، فمرض الشيخ عماد الدين، فردَّه من بعض الطريق، فأقام عنده أياماً، وتوفي عمر ليلة الاثنين ثالث عشرين رجب، ودفن بمقابر الصُّوفية في الشَّرف الأعلى.

سمع عماد الدين جَدَّه محمد بن عمر بن حمُّوية وغيره، وتفقَّه على محمد بن يحيى وغيره، وسلك طريقة الزُّهْد والتصوف، وكان خروجه من خُراسان في فتنة الغُزّ أيام السلطان سنجر، فأقام بهمذان، وبنيت له بها الرُّبُط، وصنَّف الأمالي والرَّقائق، وكان عارفاً بالحساب والجبر والمقابلة وغير ذلك، ولما توفي فوَّض صلاحُ الدِّين إمرة المشيخة إلى ولده صدر الدين، وماتَ صلاح الدين وارتفعت منزلته عند العادل، وسنذكره إنْ شاء الله تعالى.

يحيى بن نجاح[1]

أبو البركات، المؤدِّب البغدادي.

من شعره يمدح المستضيء: [من الخفيف]

أخيالٌ لطَيْفِ سُعْدَى يزورُ ... أم كذا في الظَّلام تَسْرِي البُدُورُ

طَرَقَ الرَّكْبُ مَوْهِناً فاهْتَدَى مَنْ ... كان عن منهجِ السَّبيل يجورُ

عَبِقَتْ نفحةُ النَّسيمِ بريَّا ... ه ففاحتْ كما يفوحُ العبيرُ

مَنْ عَذِيري من لائمٍ في هواه ... وَهْوَ في تَرْكِهِ لومه معذورُ

يتجنَّى عليَّ تِيْهاً ولم أَجْـ ... ـنِ ويجني وذنبُه مغفورُ

وعَذَابُ المُحِبِّ يَعْذُبُ في الحُبِّ ... ويلتذُّ بالهوى المهجورُ

يا له من هوًى يقيمُ له ما ... بين جنبيَّ منزلٌ مَعْمُورُ

ما على اللَّائمِ المعنِّف لو أَقْـ ... ـصَرَ عني والعاذلون كثيرُ

---

(١) هو يحيى بن نجاح بن مسعود بن عبد الله اليوسفي البغدادي، له ترجمة في: «خريدة القصر»: قسم شعراء العراق: مج ٣/ ج ٣/ ٣٣٣ـ٣٤٢، وذكره ابن الجوزي في «المنتظم»: ١٠/ ٢٤٩ في وفيات سنة (٥٦٩هـ).

سوف أثني عِنانَه[1] عن ملامي بمقالٍ حقٍّ إليه يَصيرُ
بمديحِ المَوْلى الإمامِ الذي قد ملأ الأرضَ عدلُه الموفورُ
لم يَزَلْ منذ حَلَّ في المهد يعلو ه إلى اليوم في الخِلافة نورُ
ثم وافَتْه تنجلي فتلقَّا ها بوجهٍ هو الصَّباحُ المنيرُ
فأضاءَتْ بالمُسْتضيء نواحي الـ أرضِ إذْ قام وانجلى الدَّيجورُ
أنتَ يا ابن القُروم من آل عبَّا سٍ أمينٌ للمؤمنينَ أميرُ[2]

السَّنة الثامنة والسبعون وخمس مئة

في المحرَّم سار سيف الإسلام طُغْتِكِين إلى اليمن، فنزل زَبيد وبها حِطَّان، فأمره أن يسير إلى الشَّام، فجمع أمواله وذخائره وأسبابه، ونزل بظاهر زبيد، فَقَبَضَ عليه سيفُ الإسلام، وأخذَ جميعَ ما كان معه، وقيمته ألف ألف دينار، ثم قتله بعد ذلك، وكان عثمان الزَّنْجيلي بعدَن، فلما بلغه ذلك سار يطلب الشَّام بعد أن أثر باليمن آثاراً كثيرة، ووقف الأوقاف، وله مدرسةٌ بمكة، ورباطٌ بالمدينة وغيرها.

وفي خامس المحرَّم خرج صلاحُ الدّين من مِصْر، فنزل البركة[3] قاصداً الشَّام، وخرج أعيانُ الدَّولة لوداعه، وأنشده الشعراء أبياتاً في الوداع، فسمع قائلاً يقول في ظاهر الخيم:

تَمَتَّعْ من شميمِ عَرارِ نَجْدٍ فما بَعْدَ العَشِيَّة من عَرارِ[4]

فطلب القائل، فلم يوجد، فوجم السُّلْطان، وتطيَّر الحاضرون، فكان كما قال، اشتغل السُّلْطان بالشرق والفرنج، ولم يَعُدْ بعدها إلى مِصْر.

---

(١) في (ح): «ملامه»، والمثبت من «الخريدة».

(٢) الأبيات في «خريدة القصر»: مج ١ ج٣/ ٣٣٤ـ٣٣٦ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) أي بركة الجب.

(٤) قائل ذلك أحد مؤدبي أولاده كما ذكر ذلك العماد، ونقله عنه أبو شامة في «الروضتين»: ٣/ ١٠٤.
والبيت للشاعر الصمة بن عبد الله القشيري، وهو شاعر غزل، توفي نحو (٩٥هـ)، وهو من أبيات اختارها أبو تمام في حماسته. انظر «شرح المرزوقي»: ٣/ ١٢٤٠ـ١٢٤٤.